نظرية الإندفاع الحيوي للتطور الخلاق عند هنري برجسون

المدرس المساعد غادة عبد الستار مهدي
قسم الفلسفة / كلية الآداب - جامعة بغداد

تمهيد

إن نظرية الإندفاع الحيوي الخلاق هي أساس فكرة الفيلسوف الفرنسي برجسون عن التطور. فقد بث الله (المطلق) نفثة حيوية بدأت من مكان محدد، و في زمان معين. و أخذت تنتشر كقوة بسيطة، ثم تعاظمت هذه القوة و نمت، و تعرضت إلى كثير من المعوقات أثناء تقدمها، و تقطعت مساراتها، لكنها على الرغم من ذلك تابعت مسيرها، و إستطاعت بنجاح أن تخلق سائر الكائنات الحية إبتداءً من أبسطها وصولاً إلى أرقاها ألاّ و هو الإنسان.

فقد أوجدت هذه النفثة الحيوية وجودنا وسائر الموجودات، و الطبيعة، بل الكون بأسره، وإن الله (المطلق) هو أساس هذه النفثة وهو مصدرها.

إن نزعة برجسون الحدسية مرتبطة بهذه الفكرة إرتباطاً مباشراً. تلك النزعة التي جعلته يوجه نقده إلى المذاهب العلمية التطورية و الآلية والغائية و سائر المذاهب الفلسفيةعند ديكارت و ليبنتز و سبينوزا، لقد قدم لنا برجسون عن خلق العالم والكون والكائنات تصوراً جميلاً، فالخلق (التطور) لم يحدث- كما يراه برجسون- عن طريق المصادفه العمياء، ولا وفق برنامج او مخطط تم اعداده مسبقا، ولم يحدث باكتساب الصفات الوراثيه حسب النظريات العلميه والفلسفبه القائله بالتطور.

بل ان التطور الذي تحدث عنه برجسون قائم على اساس "الاندفاع الحيوي الخلاق"، وسمي خلاقا لانه اشبه بالمياه المتدفقه، والمتجدده والدائمه الاندفاع. فعمليه التطور عمليه تجدد وخلق وابداع مستمر.
وهذا ما سوف نلاحظه في هذا البحث، والذي بينت فيه الجذور التاريخيه لفكره التطور، ثم نقد برجسون للمذاهب التطوريه، ومعنى التطور عنده، ومفهوم الاندفاع الحيوي ومميزاته، وربطه بفكره الخالق (المطلق).

١. **الجذور التاريخيه لفكره التطور:**

ان فكره التطور قديمه جدا، تعود الى الفكر اليوناني القديم. فقد ظهرت عند الفلاسفه الطبيعين الاوائل لاسيما انكسيمندريس، اذا كان يعتقد بان الاحياء جاءت من الرطوبه بعد سلسلة من عمليات التبخر، واول الكائنات الاسماك، ثم ظهر الانسان بعدها وبشكل تدريجي.

وقد صدرت باقي الاشياء عن اللامتناهي ثم فسدت وعادت اليه مره اخرى، والموجودات تكونت من اجتماع العناصر الماديه وتنافرها بتاثير الحركه، دون عله فاعله متمايزه، ودون غائيه، ان تفسير انكسيمندريس يعد تفسيراً (آلياً) يقترب من فكره احد العلماء المحدثين (لابلاس) ويقترب من القول بمذهب التطور.(١)

ومن فلاسفة الطبيعة ايضا نجد "هير وقليطس" الذي لخص محمل فلسفته ومذهبه في عباراته المشهورة "الاشياء في تغير متصل"، و"أنك لاتنزل النهر الواحد مرتين، فان مياها جديده تجري من حولك ابدا".(٢) نجد في عبارته هذه القول بمبدأ الصيروره والتغير.

ومن الفلاسفه الذين قالوا بمبدأ "الاليه" فلاسفة الطبيعة المتاخرون من امثال "انباذوقليس، وديمقريطس، وابيقور"، فقد تكونت الاشياء- من وجهة نظرهم، بفعل اجتماع ذرات ماديه، فتكون العالم، والموجودات، وكانت الاحياء اكثرها تعقيداً، اذ نشات بالإتفاق ثم بقي الاصلح فيها وثبت نوعه.(٣)
لكن من الملاحظ هنا، ان الفلاسفه اليونان لم يطبقوا فكرة التطور على الحياة بقدر تمكنهم من تطبيقها على تطور الاشياء الماديه الجامدة.(٤)

ونجد ايضا ان العرب القدماء، قد اوردو بعض المبادئ التي اعتبرت من اقوى الركائز في مذهب النشوء والارتقاء، فقد اشاروا من خلال بعض

سطور مؤلفاتهم الى مصطلحات منها الوراثة، والرجعى، والانخاب الطبيعي، والانقراض، واعتبروا ان عالم الانسان، والحيوان، والنبات، والجماد يمثل عالماً واحداً تفصل بينهما حدود دقيقة.[٥] ومن ابرز القائلين بذلك هم (اخوان الصفا)، و(ابن حزم)، و(ابن مسكوية).

اذ اعتبروا اخر افق الجماد متصل باول افق الحيوان، وان اخر افق الحيوان متصل باول افق الانسان.[٦]

لكن العرب عجزوا عن الوصول الى النتائج العامة التي توصل اليها علماء وفلاسفة العصر الحديث، بسبب نقص المكملات الاولية.[٧]

ففي القرن الثامن عشر كانت وجهة الفكر متجهة نحو فكرة التطور(تطور الاحياء)، وقد كان العالم الفرنسي "بافون" اول من اهتم بهذه الفكرة، وكتب عنها باسلوب علمي واضح. ثم عادوا الكتابة عن التطور"لامارك" معقبا على "بافون" اذ نشر"لامارك" سنة (١٨٠٩) كتابه "فلسفة الحيوان" ثم كتابه "تاريخ الفقريات الطبيعي"، والذي اكد فيهما على ان الانسان توالد من اجناس وانواع اخرى، وكانت النتائج التي حققها عن طريق ابحاثه، انه قد نبه العقول الى حقيقة مهمة هي ان التحولات والتغيرات الحاصلة في عالم الكائنات العضوية ناتج عن سنن طبيعيه خالصة.

وبعدها توالت الابحاث والمؤلفات والكتب عن فكرة التطور على يد عدد كبير من العلماء والفلاسفة منهم العالم "جفروي سانتيلير" (١٧٩٥)، وولز(١٨١٣)، و"وليم هربرت" (١٨٢٢)، "وجرانت" (١٨٢٦)، و"باتريك ماتيو" (١٨٣١)، "وفون بوخ" (١٨٣٦)، و"دوما ليوس دالوي" (١٨٤٦)، "ورتشارد ادين" (١٨٤٩)، "وهربرت سبنسر" (١٨٥٨)، "وهوكر" (١٨٥٩)، الى ان ظهر اخيرا كتاب "اصل الانواع" لـ"جارلس داروين" والذي اثبت فيه نظريته التطورية عن النشوء والارتقاء فارسى بذلك اسس المذهب التطوري.[٨]

٢.نقد برجسون للمذهب الآلي والغائي حول فكرة التطور:

كان مذهب التطور هو الاتجاه الفكري الذي قامت عليه فلسفة القرن التاسع عشر، فقد كانت النجم اللامع في سماء الفكر انذاك.[٩]

واتسمت الفلسفة بانها ذات طابع علمي حتى ظهرت فلسفة هنري برجسون* تلك الفلسفة الحدسية الناقدة ، والتي تمكنت من توجيه سهامها اللاذعة تجاه الفلسفات العقلية القياسية، وهدمت ادعاءات الالية، والمادية، والتطورية، والسبنسرية، والدارونية.(١٠)

وقد تجلى هذا النقد واضحا في كتابه" التطور الخالق"، اذ قام هذا الكتاب على نقد النظريات والمذاهب البيولوجية المكيانيكية التي نجدها عند داروين، ولامارك، ولابلاس، وسبنسر وهيكل، فضلا عن نقد المذاهب والنظريات الفلسفية بصورة عامة. فقد عرض برجسون دراسة واضحة عن المبادئ الاساسية للعديد من الفلاسفة من امثال ديكارت، وليبنتز، وسبينوزا، على ضوء ما عرف عنده بـ"فلسفة الديمومة"، والتي تحلت معالمها بوضوح في التطور "التطور الخلاق"، فقد حددت الدراسة التي قام بها برجسون لاداء العلماء والفلاسفة السابقين نتائج مهمة، اذ انهم الغوا الزمان على ضوء ايمانهم بالازلية، واستغنوا عن التغير في سبيل الثبات وسعوا الى الغاء الديمومة و الصيرورة والحركة لحساب السكون و المكان والالية الجامدة.(١١)

ولكي يوضح برجسون مذهبه عن فلسفة الحياة، بدا بنقد المذاهب الالية والغائبة المتطرفة.(١٢) وحاول ان يرسم لنا صورة جميلة ورائعة عن تطور العالم والطبيعية، وكان هذا هو موضوعه الرئيسي في مؤلفه القيم" التطور الخلاق".(١٣)

فقد بنى برجسون نقده هذا على اساس نظريته في الزمان، فالمذهب الالي يتصور ان كل من الماضي والمستقبل متضمنان في الحاضر، وخاضعان لحساباته، بالنظر الى وظيفة كل منهما فيه بمعنى ان الالية تلغى المستقبل والماضي من اجل الحاضر ما دام كل شئ موجودا بالفعل.(١٤)

وهذا لايجوز حتى ان "لابلاس". وهو اشهر علماء التطور. قال في احدى عباراته المشهورة: "لو امكن لعقل ما ان يعرف في لحظة معينة كل القوى التي تزور الطبيعة، والوضع النسبي للكائنات التي تكونها، ولو كان من ناحية ثانية من السعة بحيث تستطيع ان يخضع كل هذه المعطيات للتحليل، لكان هذا العقل قادرا على ان يضم في صيغة واحدة حركات اكبر

الاجسام في الكون وحركات اخف الذرات فيه، عندئذ يصبح واثقا من كل شيء ، كما ان المستقبل والماضي يصبحان حاضرين امام عينيه".

وعلى هذا الأساس فالمذهب الآلي يقدم نظرية تتضمن ميتافيزيقيا في الديمومة الظاهرية للأشياء، وهي إن دلت على شيء فهي تدل على عجز الفكر عن معرفة كل الأشياء في كل اللحظات. (١٥)

فالآلية تؤمن وتؤيد الحتمية الصارمة والمذهب الميتافيزيقي لان العالم من وجهة نظرها عباره عن كتلة واحدة، وجدت منذ الازل. والديمومة مجرد مظهر من مظاهر تصورات العقل البشري القاصر عن معرفة كل الاشياء وفي وقت واحد.(١٦)

في حين تؤكد لنا تجربتنا ان الديمومة هي وجود الاشياء، والوجود باكمله، حتى وجودنا بعينه، لذا لايمكن ان ناخذ بالمذهب الالي المتطرف.(١٧)

اما المذهب الغائي فهو متطرف كذلك وللاسباب نفسها، اذ نجد هذا المذهب واضح عند ليبنتز وسبينوزا. فالعالم -من وجهة نظرهم- يسير نحو غاية او برنامجا خطط له مسبقا. ولكن اذا لم يكن في العالم تجدد وخلق مستمر، فلا فائدة اذن من الزمان، ويصبح لا معنى له.(١٨)

مادام هنالك هدف وغاية مسبقة حددت منذ الازل. وفي الحقيقة نقول ان هذه النظرة صادرة عن نزعة تشبيهية، خلطت بين عمل الطبيعة وعمل الصانع. فالطبيعة بناءا على هذه النظرة تعمل على تجميع الاجزاء في الكون وتقوم بالتاليف بينها بهدف تحقيق شيء كان معدا من ذي قبل. اذن فلن يكن هناك اختراع ولا ابداع ولا تجدد ولا خلق ولا ديمومة ولا زمان حقيقي، ما دام التنبؤ بالمستقبل ومعرفة مكنوناته اصبح معروفا وواضحا من قبل.(١٩)

على هذا الاساس رفض برجسون مزاعم المذهب الالي والمذهب الغائي، فكلاهما اخطا في ادراك معنى الزمان الحقيقي واخطا في فهم معنى التطور مع الاعتراف هنا بان برجسون لم يرفض المذهب الغائي بصورة مطلقة، ولكنه قال بوجود خارجية تشبه الالية، على اساس إنها دفع من خلف، وتختلف عنها في انها دفع ابداعي، لامجرد دفع الي محض.

اما اذا كان برجسون قد رفض الغائيه بسبب ايمانهم بوجود برنامج محدد منذ الازل، فله رأيه الذي يقول فيه:"انه لمن العبث ان يحاول المرء ان

يحدد للحياة غرضا، بالمعنى الانساني لهذه الكلمة؛ فان القول بوجود غرض اما يعني القول بوجود نموذج سابق لايعوزه سوى ان يتحقق بالفعل. ومثل هذا القول يفترض من ان كل شي موجود دفعة واحدة وان الممكن للمستقبل ان يقرأ في الحاضر. فنحن هنا نفترض ان الحياة في حركتها وتكاملها تتصرف كعقلنا تماما، والعقل ان هو الا نظرة جزئية ثابتة الى الطبيعة، لانه لا يستطيع ان يرى الا خارج الزمان. وأما الحياة نفسها فهي في صميمها تقدم وتتابع وديمومة".(٢٠)

اذن فالتطور الذي يتحدث عنه برجسون هنا هو اشبه بالقوة الخلاقة او جهد خلاق او وثبة حيوية، وليس تطورا جاء نتيجة الصدفة، بل هناك قوة حيوية واحدة تمكنت من خلق اجهزة متماثلة وبوسائل مختلفة.(٢١)

٣.دليل برجسون لإثبات نظريته في التطور :

قدم لنا برجسون مثالا هاما ليدحض به المذهب الالي العملي، وهو مثال " العين" الذي حاول من خلاله التاكيد على صحة اراءه حول مبدا تطور الحياة واستعانتها بالالات وادوات متباينة، بهدف تحقيق اغراض متشابة.(٢٢)

فاذا لاحظنا التشابه البنيوي بين احدى الحيوانات الرخوية، و أحد الحيوانات الفقرية لتسألنا إذاً كيف إن التغيرات الطفيفة ذات الأعداد الكثيرة قد إندرجت تحت نظام واحد في كل من الإتجاهين المستقلين لعملية التطور مع العلم إنها تغيرات عرضية محضة؟

أليست عمليتي التطور المتباينتين دليل على إن المادة تستخدمها الحياة نفسها لتحقيق أغراضها، مستعينة بوسائل عدة لدى مراتب و سلاسل الكائنات الحية التي إنفصلت عن بعضها البعض و منذ حقب زمنية بعيدة؟ إذن نصل بالنتيجة إلى إن الحياة تحقق أغراضها بإستخدام المادة، كالماء تماماً عندما يسير في مجرى القنوات فهو يأخذ وضعها من غير أن يكون الماء هو القناة، ومن دون أن تكون الحياة هي المادة نفسها.(٢٤)

وفي الحقيقة إن أصل الوظيفة ليس العضو نفسه، كما إن الدماغ ليس أصل الشعور، والعين ليست أصل النظر، بل إن أصل العضو الوظيفة، والشعور هو أصل الدماغ والنظر أصل العين.(٢٥) وعلى الرغم من أن العين

مؤلفة من تراكيب معقدة، لكن عملية الإبصار بسيطة، وما العين إلا فعل الإبصار.

إذن فتشبيه المذاهب الآلية بالعين وتراكيبها بالآلة وربطها بالظروف الخارجية التي ساهمت في تكوين تلك الآلة المعقدة. نقول أن هذا التشبيه غير صحيح لأنها لن تنجح في تقديم تفسير مناسب لذلك التناسق، والتجانس العجيب الواضح بين أجزاء تلك الآلة والذي لا يمكن بدونه أن تتحقق عملية الإبصار.

وهنا عرض برجسون مختلف النظريات القائلة بالتطور ووجه لها نقدا لاذعا منها نظرية داروين التي تقول ان عملية التطور جاءت بالصدفة.(٢٦)

وقد فند بعض نظريات الدارونيين الجدد من امثال: "هيجو دي فري"، الذين اعتقدوا بوجود تغيرات مفاجائة او قفزات سريعة، ونظرية اللاماركيين الذين قدموا تفسيرهم التطوري القائم على التأثر بالظروف الخارجية، ونظرية كوب- احد ممثلي اللاماركيين الجدد- الذي اعتقد بوراثة الخصائص المكتسبة، وغيرها من النظريات الاخرى التي رفضها برجسون وعاد ليقدم لنا نظريته عن التطور الخلاق او التطور الخالق مستعرضا من خلالها عمل الوثبة الحيوية، او ما يسميه بالإندفاع الحيوي، وعمل ذلك الاندفاع باعتباره اساس فكرة التطور عنده.(٢٧)

٤.الاندفاع الحيوي أساس التطور الخلاق عند برجسون:

لعبت كلمة" الاندفاع الحيوي" دورا بارزا ورئيسا في فلسفة

برجسون، فالاندفاع الحيوي هذا هو المحرك الاول في عملية التطور الخلاق.(٢٨)

حيث راى برجسون ان في البدء كان هنالك منبع خلاق، او قوة بسيطة، اونفثة يمكن ان نسميها: "الوثبة الحيوية"، وهي وثبة اولى مشتركة بين جميع مراتب وصور الحياة سواء كانت حيوانية ام نباتية، وهي اشبه بالريح العاصف التي حالما تصل الى مفترق الطرق تنقسم الى تيارات هوائية مختلفة، ولكنها في الأساس صادرة عن قوة واحدة خلاقة، وإن هذه

الوثبة أو القوة الدافعة للتطور تدفع إلى التغلب على المادة فتشكل بذلك أنواع وأشكال الكائنات، وهي عبارة عن فيوض صادرة عن قوة واحدة.[٢٩]

فالإندفاع الحيوي تيار خلاق متدفق، ينتقل من بذرة إلى بذرة أخرى عن طريق جسم نام.[٣٠] ففي وقت من الزمان، وفي مكانٍ معين ولدّت قوة خلاقة، هي تيار الحياة.[٣١] تشبه القنبلة التي إنفجرت وتناثرت أجزائها. وإن هذه الأجزاء تناثرت بدورها لتكون أجزاءاً أخرى تنفجر بدورها وهكذا، وعلى مرور الأزمان.[٣٢]

فالأندفاع الحيوي هو الحياة بعينها، وهو مبدأ التطور عند برجسون، لذا يصبح بأمكاننا أن نطلق على مذهبه في التطور إسم المذهب الديناميكي الحيوي.[٣٣]

٥- مميزات الإندفاع الحيوي عند برجسون:

إن من أهم مميزات التطور الذي تحدث عنه برجسون أنه تطوراً خلاقاً، يعمل على خلق وإيجاد مجاميع عدة من الأعضاء الحيوية، والغرائز والميول، والأمكانيات الذهنية، والقدرات العقلية المؤهلة، بحيث تؤدي إلى خلق مجاميع من المؤسسات والأفراد الإجتماعية.

فالتطور الخلاق ليس نتاج حتمية عمياء كما إعتقد الفلاسفة العلميون، بل إن هذا التطور القائم على عملية الإندفاع متضمن حرية الإبداع والعمل والخلق المتجدد قياساً إلى تلقائيته الذاتية، وعلى مستوى مؤهلاته وقدرته في العمل، والتي تستدعيها المتطلبات الحيوية. كما إن هذا التطور لم يحدث وفقاً لتدابير ميكانيكية متناسقة، ولا إكتساب الخصائص الوراثية، بل تمت عملية التطور بناءاً على "وثبات فجائية"، وهذه ميزة أخرى من مميزاته، كذلك إن إندفاعاته داخلية ومتجددة، وتحدث في كل مرة.[٣٤]

يضاف إلى ذلك إن من أهم مميزاته، إنه يعمل بطريقة حرة. فهو يملك الحرية الكافية التي تؤهله من أجل بث إندفاعاته وتدابيره الخلاقة، والتي تجعل الحياة قادرة على إكتشاف وسائل تعينها على الصمود والبقاء.[٣٥]

وإن هذا الإندفاع أيضاً يتم بطريقة متقطعة، لأن المادة تعيق عملية إندفاعه. فالحياة أشبه بالينبوع الجاري المتدفق ماؤه إلى الأعلى. ثم تسقط مياه هذا الينبوع إلى الأسفل كنتيجة حتمية لعملية التصعيد هذه. فالمياه

الساقطة هنا تشكل ما يُعرف بالمادة، والتي تجري بطريقة معاكسة تماماً لعملية تطور الحياة.(٣٦)

فالتطور إذن تم وفق عملية متقطعة، تعرض خلالها إلى عدة إنقسامات مختلفة، موزعاً إنقساماته هذه وفق إتجاهات متباينة بدورها. وقد تعرضت عملية التطور نتيجةً لهذه الإنقسامات إلى إنكسارات وإنحرافات، ولم تتمكن من تحقيق نجاحها في عملية الخلق إلا في إتجاهين:

الأول: خط الحشرات الأرثروبودية

والثاني: خط الحيوانات الفقرية

ونجد في نهاية خط الإتجاه الأول الغرائز الحشرية. وفي نهاية خط الإتجاه الثاني العقل الإنساني. نستخلص من ذلك إن عملية الإندفاع الخلاق تتضمن بالإضافة إلى عملها المتقطع، عقلاً وغريزة.(٣٧)

وإن هذا العمل المتقطع، لم يفطن إليه الفلاسفة. على حد تعبير برجسون. لأنهم إعتقدوا إن حياة الجماد، والنبات والحيوان، والأنسان حياةً واحدة، وهي أشبه بالطبقات المرتبة الواحدة فوق الأخرى، والإنسان في أصله حيوان، تدرجت صوره وهيأته حتى أصبح حيواناً مُكتملاً. والحيوان بدوره عبارة عن نبتة مكتملة تدرج في صورة، والنبتة أيضاً عبارة عن أجزاء جمادية متناسقة التراكيب.

اما برجسون فقد راى ان اشكال الحياة المختلفة، وبكافة تفرعاتها قد وجدت بطريقة مستقلة عن بعضها البعض، وجاءت من مصدر واحد هو" الاندفاع الحيوي الخلاق"، وان الفرق يكمن في طبيعة واشكال وصور الحياة وليس في درجاتها.

ومن الاخطاء الاخرى التي وقع فيها بعض العلماء والفلاسفة اعتقادهم بوجود علاقة بين الغرائز الحيوانية والفهم الانساني.(٣٨) وهذا غير ممكن من وجهة نظر برجسون – لأن الإنسان والحيوان، لا يمكن أن يكونا على مستوى تطوري واحد، فالطبيعة منحت للحيوان القوة الغريزية، التي ساعدته على العيش والتكيف مع الطبيعة، أما الإنسان فقد منحته الطبيعة ملكة الفهم الشامل، التي تمكنه وتساعده على العمل والخلق والابداع والتجديد، وهي صورة مختلفة لما وجد عليه الحيوان.(٣٩)

٦. تطور الكائنات الحية:

ان الكائن الحي (الانسان) عند برجسون عبارة عن سلسلة بيولوجية، تستمر فيها الصور، وتنتقل من بذرة الى بذرة اخرى عن طريق العضيات المتطورة.(٤٠)

فالكائن الحي يمثل مرحلة الانتقال ما بين النبات والحيوان وصولا الى الفقريات الراقية.

ففي البدء كانت المادة الحية عبارة عن كتلة بروتوبلازمية، قابلة للتاثير والتقلص، وخاضعة لتاثيرات خارجية، تنتج ازاءها ردود فعل مختلفة فيها الية وكيميائية وفيزيائية. وكلما ازداد رقي المرء شهدت عملية تطوره البيولوجي انقساما فيزيولوجيا ينتج خلايا عصبية متنوعة تسعى الى التجمع ضمن منظومة واحدة.(٤١)

فتؤلف بذلك سلسة الكائنات الحية المتدرجة، وعملية التطور هذه تشبه النشاط الشعوري، وعملية الخلق الدائم والمستمر والمتجدد.(٤٢)

وان عملية استمرار الحياة تبين لنا ان عملية التطور العضوي هي عملية تطور وعي ايضا، لان الماضي يؤثر في الحاضر ويضغط عليه،حتى تنبثق منه صورا واشكال جديدة للحياة، فالحياة اساسا ما هي الا ميول متباينة، يتطور كل ميل منها على هيئة وعي، وهي بذلك حياة تحمل طابعا سايكولوجيا، اضافة الى طابعها البيولوجي. ان معظم صور الكائنات ناتجة عن النفثة الحيوية التي بثها الخالق (المطلق عند برجسون) في الطبيعة، وقد نتج عن هذه النفثة النبات وميزته الخمود، ثم الحيوان وميزته الغريزة، ثم الانسان وميزته الفهم (الذهن).

ويقول برجسون بهذا الصدد: (ان جميع الكائنات الحية متماسكة، وجميعها خاضعة لنفس الدفعة الهائلة: الحيوان برتكز على النبات، والانسان يشتبك مع الحيوانية، والانسانية باسرها في المكان وفي الزمان هي جيش محشود، يزحف الى جانب كل واحد منا، من امامنا ومن خلفنا، في غارة ساحقة، تستطيع ان تكتسح جميع العوائق، وان تجتاز العقبات، وربما تغلبت على الموت نفسه.)(٤٣)

وان هذه النفثة اشبه بتيار القدرة الخالقة المبدعة، تنصب في المادة وتخرج منها ما يمكن اخراجه من كائنات حية.(٤٤)

واذا انتقلنا من حياة الكائنات الحية الى الحياة العامة، فاننا سوف نلاحظ تشابه وتماثل بين كلا الحياتين، لانهما في صراع مستمر ودائم مع المادة. لان المادة- كما ذكرنا سابقا- تعيق عملية " الاندفاع الحيوي الخلاق"، وتعرقل سيرها، وتعترض طريقها، لكن على الرغم من ذلك فالحياة تعرض لنا عملية تطور زماني متسلسل، يتقدم ويتدفق كوعي، وهي ضمن هذا المسار تبقى محتفظة بالماضي من اجل المستقبل-كما يراه برجسون- اذ يقول:
(المهم هو استمرار التقدم، الذي يمضي بلا نهاية).[٤٥]

٧. الله وعلاقته بالدفعة الحيوية:

يمكن ان نلاحظ ونلمس من كتاب برجسون "التطور الخالق" ان فكرته حول موضوع المطلق تتحد بشكل تام مع فكرته عن الدفعة الحيوية. لان المطلق (الله) –في نظرة- منبع ومصدر كل شئ في الوجود، وهو الذي عمل على بث النفثة او الدفعة الحيوية في الكون.[٤٦]

فالمطلق خلق العالم، وجميع المخلوقات ذات علاقة مباشرة به. ولكنه ليس بائنا على غرار ما هو عليه عند الفلاسفة، فهو ليس الها رياضيا، ولا هندسيا كما نجد عند ليبنتز او سبينوز او ديكارت. بل انه اله برجسون الها خالقا بث النفثة الحيوية في الكون باسره فوجدت الخلائق. فهو على اتصال مع هذه النفثة، وهو اساسها وباعثها.[٤٧]

ونلاحظ من خلال ما يتقدم ان مذهبه الحدسي مرتبط تماما بفكرته التطورية، لان الاكتفاء باخذ المعطيات الحياتية في الوجـــود غير كاف – من وجهة نظر- كما ان تجارب وخبرات الزهاد والصوفية تاخذنا الى امور ابعد من ذلك بكثير، فهي تاخذنا الى امور فوق مستوى البشر، بمعنى امور ماورائية.

فالخليقة في الاساس عمل الهي. يقول برجسون في هذا الصدد محاولا ربط نزعته الحدسية مع فكرته في تطور الكائنات الحية وعلاقتها بالخالق وحبها له، "دعت للوجود كائنات حية معدة لان تحب، وتحب لان الطاقة الخلاقة من شانها ان تحدد بالحب؟ وبما ان هذه الكائنات غير الله، الذي هو عنده الطاقة ذاتها، لم يكن من الممكن لها ان تكون الا في الكون

الذي هو كرتنا الارضية، وربما في مجموعتنا الشمسية بكاملها كان لابد لهذه الكائنات، لكي تكتمل، من ان تشكل نوعا، ولهذا النوع من ان يتطلب عدة انواع اخرى كانت له اعدادا ودعامة ونفاية، والخالق في نظره الحياة باكملها وفعل وحرية وخلق فهو يقول: "الله معرفا على هذا النحو ليس فيه شئ جاهز، انه حياة بلا انقطاع فيها، انه فعل، وانه حرية، والخلق متصورا على هذا النحو ليس سراً من الاسرار، اننا نبلؤه في انفسنا متى عملنا عملا حراً".(٤٩)

الخاتمة

تبين لي من خلال بحثي هذا إن نظرة برجسون لمبدأ وفكرة التطور تختلف كثيراً عما جاء به الفلاسفة والعلماء.

فالتطور في نظرة لم يحدث بحسب الصدفة، ولا إكتساب الصفات الوراثية، ولا بتدابير ميكانيكية أو آلية أو غائية. ولا وفق برنامج أُعد مسبقاً. بل حدث التطور نتيجة دفعة حيوية خلاقة قد بثها الخالق في الكون بأسره، بدأت من مركز واحد، ومصدر واحد، وإستطاعت رغم معوقات المادة، أن تفرض نفسها وتستمر، وهي عبارة عن خلق متجدد وإبداع مستمر.

وقد رأى برجسون إن علماء التطور قد أخطئوا في تصورهم عندما إعتقدوا بوجود علاقة ضمن سلسلة الكائنات الحية بين الفهم الإنساني والغرائز الحيوانية. حتى إن بعض النظريات العلمية كالداروينية إعتبرت إن الإنسان عبارة عن حيوان متكامل. لكن برجسون كان على خلاف هذه النظريات إذ إن ملكة الفهم (العقل الإنساني)، تختلف تماماً عن الغرائز الحيوانية، فالفهم الإنساني مكن الإنسان من تشكيل الأفراد وتكوين المؤسسات الإجتماعية القادرة على الخلق والإبداع.

كما إن بعض المذاهب التطورية المتطرفة كالمذهب الآلي والمذهب الغائي قد نفت حساب الزمن وألغت دوره في عملية التطور وهذا غير جائز – من وجهة نظر برجسون – لأن العملية التطورية حدثت حسب حقب زمنية

متعاقبة ومتتالية وبدون هذه العملية سوف تتوقف عملية التطور وتصبح عديمة الفائدة.

وقد إتحدت نظرية برجسون التطورية مع فكرته عن الخالق. فمذهبه التطوري يقترب من المذاهب الصوفية، كما إن هذه النظرية إن دلت على شيء فهي تدل على نظرة أخلاقية أعلت من شأن الخالق وجعلته منبع وأصل كل شيء في الوجود، كما إنها نظرة كرّمت الإنسان، وصورته على أكمل وجه، إذ ميزته عن سائر الكائنات الحية، وخاصة الحيوان، والذي إعتقدت بعض نظريات التطور العلمية بأن الإنسان ماهو إلاّ حيوان مكتمل، تدرجت صوره على مر الأزمان، كما إعتقدت بوجود صلة بين غرائز الحيوان والفهم البشري.

المصادر

١. ابراهيم، زكريا، برجسون(نوابغ الفكر الغربي)، دار المعارف، طـ٢، مصر، ١٩٦٨.
٢. امين، د. عثمان، لمحات من الفكر الفرنسي، طـ١، النهضة المصرية، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٧٠.
٣. برجسون، هنري، التطور الخالق، تلخيص وتقديم بديع الكسم، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد، مصر، بدون تاريخ.
٤. برجسون، هنري، الطاقة الروحية، ترجمة سامي الدروبي، دار الفكر العربي، طـ٢، ١٩٦٣.
٥. برجسون، هنري، المادة والذاكرة، ترجمة د. اسعد عربي درقاوي، مراجعة د. بديع الكسم، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد الفومي، دمشق، ١٩٦٧.
٦. برجسون، هنري، منبعا الاخلاق والدين، ترجمة د. سامي الدروبي و د. عبد الله عبد الدائم، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر، ١٩٧١.
٧. برجسون، هنري، رسالة في معطيات الوجدان البديهية، ترجمة كمال يوسف الحاج، منشورات كنوز الفكر الغربي، دار الاحد، بيروت- القاهرة- الجزائر، ١٩٤٥.
٨. جود، منازع الفكر الغربي، نقله الى العربية فارس فضلي خماس، راجع الترجمة ونقحها د. عبد العزيز البسام، مطبعة المجمع العلمي العراق، ١٩٥٦م-١٣٧٥هـ.
٩. داروين، تشارلز، اصل الانواع، ترجمة اسماعيل مظهر، منشورات مكتبة النهضة، بيروت- بغداد، ١٩٧٣.

١٠. كريسون، اندريه ، برغسون، ترجمة نبيه صقر، منشورات عويدان، بيروت-باريس، ط٢-١٩٨٢.
١١. كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥-١٩٣٦.

الهوامش

(١) يوسف كرم , تأريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥-١٩٣٦، ص ١٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٩
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩١
(٤) تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظهر، منشورات مكتبة النهضة، بيروت – بغداد، ١٩٧٣، ص ٥٠.
(٥) المصدر نفسه، ص ٥٠
(٦) المصدر نفسه، ص ٥٠-٥١
(٧) المصدر نفسه، ص ٩
(٨) المصدر نفسه، ص ٥١
(٩) المصدر نفسه، ص
* هنري برجسون. فيلسوف فرنسي ولد في باريس، شارع لامارتين سنة ١٨٥٩، له مؤلفات عديدة منها: رسالة في معطيات الوجدان البديهية، المادة والذاكرة، الضحك، التطور الخالق، الطاقة الروحية، منبعا الدين والأخلاق، الفكر المتحرك.
(١٠) هنري برجسون، رسالة في معطيات الوجدان البديهية، ترجمة كمال يوسف الحاج، منشورات كنوز الفكر الغربي، دارالاحد، بيروت-القاهرة- الجزائر، ١٩٤٥، ص٨.
(١١) زكريا ابراهيم، برجسون (نوابغ الفكر الغربي)، دار المعارف، ط٢، مصر، ١٩٦٨، ١٣٥-١٣٦.
(١٢) هنري برجسون، التطور الخالق، تلخيص وتقديم بديع الكسم، دار الفكر الغربي، مطبعة الاعتماد، مصر، بدون تاريخ، ص٢٤.

(١٣) اندريه كريسون، برغسون، ترجمة نبيه صقر، منشورات عويدات، بيروت-باريس، طـ٣، ١٩٨٢، ص٥٢-٥٣.
(١٤) زكريا ابراهيم، برجسون، ص ١٤٣.
(١٥) هنري برجسون، التطور الخالق، ص٢٤.
(١٦) زكريا ابراهيم، برجسون، ص١٤٤.
(١٧) هنري برجسون، التطور الخالق، ص٢٤.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٤-٢٥.
(١٩) زكريا ابراهيم، برجسون، ص ١٤٥.
(٢٠) المصدر نفسه، ص١٤٤-١٤٥.
(٢١) المصدر نفسه، ص١٤٦.
(٢٢) المصدر نفسه، ص١٤٧.
(٢٣) برجسون، التطور الخالق، ص٣٠.
(٢٤) زكريا ابراهيم، برجسون، ص ٣٠.
(٢٥) المصدر نفسه، ص١٤٧.
(٢٦) المصدر نفسه،ص ١٤٧-١٤٨.
(٢٧) المصدر نفسه، ص١٤٨.
(٢٨) اندريه كريسون، برغسون، ص٧٢.
(٢٩) عثمان امين، لمحات من الفكر الفرنسي، مطبعة السنة المحمودية، ط١، ١٩٧٠، ص١١٧.
(٣٠) هنري برجسون، التطور الخالق، ص٢٣
(٣١) المصدر نفسه، ص٢٣.
(٣٢) المصدر نفسه، ص٣٧.
(٣٤) اندريه كريسون، برغسون، ص٧٣.
(٣٥) المصدر نفسه، ص٥٦.
(٣٦) جود، منازع الفكر الغربي، نقله الى العربية عباس فضلي خماس، راجع الترجمة ونقحها د.عبد العزيز البسام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م- ١٣٧٥هـ، ص١٦١.
(٣٧) هنري برجسون، الطاقة الروحي، ترجمة سامي الدروبي، ملتزم الطبع والنشر، دار الفكر العربي، طـ٢، ١٩٦٣، ص١٧.
(٣٨) اندريه كريسون، برغسون، ص٥٣.
(٣٩) المصدر نفسه، ص٥٤.
(٤٠) عثمان امين، لمحات من الفكر الفرنسي، طـ٢، ص١١٩.
(٤١) هنري برجسون، المادة والذاكرة، ترجمة د. بديع الكسم، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٧، ص٢٦.

(٤٢) هنري برجسون، التطور الخالق، ص ٢٣.
(٤٣) عثمان امين، لمحات من الفكر الفرنسي، طـ١، ص١٢١.
(٤٤) هنري برجسون، منبعا للاخلاق والدين، ترجمة د. سامي الدروبي و د.عبد الله عبد الدائم، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر، ١٩٧١، ص ٢٢٥.
(٤٥) عثمان امين لمحات من الفكر الفرنسي، طـ١، ص١٢٠-١٢١.
(٤٦) هنري برجسون، التطور الخالق، صـ ١٥.
(٤٧) عثمان امين، لمحات من الفكر الفرنسي، طـ١، ص١١٩.
(٤٨) اندريه كريسون، برغسون، ص٦٣.
(٤٩) عثمان امين، لمحات من الفكر الفرنسي، طـ١، ص١١٨.